

وسأل عنه كثيرا ، وكان مسرورا للغاية ، وأنه انتهى من كتابة رواية جديدة عن فترة ما بعد السجن لا يجد من ينشرها ، وأنه مازال مترددا في موضوع السفر . نطق زوجها الذي ظل صامتا طوال حديثها عن هذا الصديق قائلا : « ما زال يحبك . . رغم كل ما حدث ، ورغم هذه السنوات لم تتغير مشاعره نحوك » . وهنا : « انبعث الدوى مرة أخرى متتاليا . استمر الوصف للحظة بدت ملامحه أكثر حدة . دون ظلال في ثنايا الوجه ظهر أثر واضح لندبة قديمة أعلى حاجبيه » (ص ٧١) .

واللون الأحمر عندها يقف متحديا اللون الرمادي ومشتقاته في : « القاع الملحي » تتبعثر أكداكس الكتب في أرجاء الحجرة . وعندما اقتربت الزائرة من المنضدة ، وأزاحت الكتب المكومة « تطاير غبار رمادي ناعم » (ص ٢٠) وفي : « المرضى » يواجهنا أشخاص يرتدون ثيابا رمادية . والتأكيد على اللون في مواضع عدة من هذه القصة يصيغ الجو كله به . ويجعل من ذوى الأردية الرمادية قوالب متشابهة . العجوزان اللتان سحبتاهما في نهاية القصة إلى غرفتها : « كانتا متشابهتين بدرجة كبيرة ، لهما صوت أجش ، لاحظت شعرا خفيفا يثبت على وجهيهما . لم أتبين تماما إن كانا رجلين أم امرأتين » (ص ٣١) لقد طمس التشابه حتى الملامح المحددة للنوع . وفي : « الوليمة » يتشابه الإنسان والتمثال . عندما فتحت البوابة رأيت رجلين « يرتديان ثيابا متشابهة » أشارت لهما بالدخول . وفي القاعة الكبيرة : « كان هناك أشخاص في ثياب أنيقة واقفين في كل مكان بالقاعة ، فردت ثنيات ثوبى وجذبت أطرافه على ساقى . جلست على المقعد وأخفيت قدمى خلف قدمى الأخرى ، وظل الأشخاص الذين كانوا بالقاعة وقوا في أماكنهم ، بعد قليل تبين أنهما تماثيل بالحجم الطبيعي وعليها ثياب حقيقية » (ص ١٢٦) وفي نهاية المائدة التي تمتد بطول قاعة الطعام « كان يقف واحد من تلك التماثيل وعليه عباءة فضفاضة ويده مستندة إلى عصا خشبية » سرعان ما تبين أنه رجل حقيقى .

وإذا كانت مخلوقاتنا القاهرة قد اتحدت في النوع والمادة ، فإن مخلوقاتنا المقهورة قد اتحدت في المصير . في « المرضى » نجد قصة جانبية عن فتاة من النزلاء تحلم بعودة حبيبها . لكنهم يعاملونها بجفاء ، ولا يتعاطفون مع مشاعرها ، ويصرون على أن حبيبها لن يعود .

في نهاية القصة تبدأ الراوية في ملاقة نفس المصير . فما أن قالت للأصلي صاحب الغليون عندما مر من أمامها : « لقد رأيتها وكانت تنزف دما » حتى أمر الأردية الرمادية أن تسحبها إلى غرفتها : « انسلت